الناس لا يكونون كآبائهم في الفضل [١] – فإن أبا هلال يرى عكس ذلك ، فإنه لا ينبغي أن يخلو المدح من مناقب آباء الممدوح ، وتقريظ من يعرف به وينسب إليه ، وقد أنشد أبو الخطاب الفضل بن يحيى قوله :

وجدنا لَهُ يا ابْنَ أبي علي بِنَفْحَةِ مِنْ ملك سخي
فإنه عود عَلى بدي فَإِنَّما الوسمي بالولي

فقال الفضل : بنفحة من نفح برمكي ، فجعله أبو الخطاب كذلك [٢].

. بل إن القاضي الجُرجاني يجعل المديح بالآباء قاعدة أساسية في المديح ؛ ولذا عاب على جبلة قوله :

وَما سَوَّدَتْ عِجْلاً مآثِرُ عَزْمِهِمْ وَلَكِنْ بِهِمْ سادَتْ عَلى غَيْرِها عِجْلُ

فهذا معنى سوء يقصر بالممدوح ، ويغضُّ من حسبه ، ويحقِّر من شأنه ، « وإنما طريقة المدح أن يجعل الممدوح يشرف بآبائه ، والآباء تزداد شرفًا به ، فيجعل لكل منهم في الفخر حظا ، وفي المدح نصيبًا ... لأن شرفَ الوالد جزءٌ من ميراثه ، ومنتقل إلى ولده كانتقال ماله . » [٣]

وطبيعة الدلالة في المديح ترتبط بالممدوحين في الارتفاع والاتضاع ، وضروب الصناعات والتبدي والتحضُّر ، فإذا كان الممدوح مملَّكًا فإصابة الوجه في مدحه مثل قول النابغة في النعمان بن المنذر :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَعْطاكَ سورَةً تَرى كُلَّ مَلْكٍ دونَها يَتَذَبْذَبُ
بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالمُلوكَ كَواكِبٌ إذا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ [٤]

(١) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، ص ١٩٠ . (٢) أبو هلال : الصناعتين ، ص ١٠١ .
(٣) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .
(٤) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، ص ٨٢ .